

•
•

•

•
•

—

1

أريد أولاً أن أشكر جامعة بيت لحم لدعوتي لهذا المؤتمر،
رئاسة الجامعة أولاً وأيضاً عمادة الدراسات الدينية،

ويشرفني أن أكون حاضراً بينكم هذا اليوم. أريد أن أعبر أيضاً عن سعادتني، وعن شعوري
بالشرف لحضور غبطة البطريرك ميشيل صباح الذي أنهى كلمته هذا الصباح والذي أصّر على
البقاء والاستماع فكل الاحترام والتحية له ولسماحة المفتي، مفتي بيت لحم ولكافة الحضور.
قبل أن ابدأ أريد أن استحضر حادثتين تخصا البطريرك ميشيل صباح قد يتذكرهما وقد لا
يتذكرهما،

الحادثة الأولى تخص يوماً ما، عندما توفي أخي فيصل الحسيني، وجاء البطريرك ميشيل صباح
إلى بيت الشرق. كان جثمان المرحوم فيصل لا زال في الطريق من الخارج إلى فلسطين وإذا
كان يتذكر، جلست القرفصاء أمامه وطالبته كقيادة دينية بان يقوم هو والقيادات الدينية الأخرى
مسيحية وإسلامية بدور أكثر فعالية في محاولة لجلب السلام للشعب الفلسطيني، وكنت ولا زلت
اعتقد أن الدور الذي يمكن أن يلعبه رجال الدين في هذا المجال هو دور أساسي وقيادي وأنا
أتمنى حقيقة أن يقوم رجال الدين المسؤولون بهذا الدور لأنه كما أظن فالعلمانيون ومنهم أنا، يبدو
أننا قد فشلنا في محاولتنا حتى الآن لجلب هذا السلام.

أقول العلمانيون بالمعنى العام، لأن حضارتي ومعتقدي الديني كما تعرفون هو الدين الإسلامي،
ولكن أصف نفسي كمسلم علماني، وأجد فرقاً بيني بهذه الصفة وبين رجال الدين الرسميين.

الحادثة الثانية التي تستحضرني مع البطريرك ميشيل صباح، هي أنه كان متجهاً في السيارة إلى
أريحا يوماً ما أثناء إحدى الانتفاضات، وصادف حاجزاً في طريقه في مكان ما على جبل الطور
أو إحدى الطرق الخلفية، فنزل من السيارة ليعالج الأمر، وكان هنالك بعض الأطفال يلعبون في
الشارع إلى جانب الحاجز الذي أقامه الفتية هناك، وليستفسر منهم عن الطريق المؤدية إلى
أريحا، متجاوزاً بها الحاجز، فعندما شاهده الأطفال الذين كانوا يلعبون في الشارع، استهجنوا
فوراً ثوبه الديني وعبروا عن هذا الاستهجان، وبخاصة عن وجود الصليب على صدره.

نقل لي غبطة البطريرك هذه الحادثة المؤلمة، وكأنه يشير إليّ بأن ثمة عمل تربوي أساسي يجب
علينا جميعاً المباشرة فيه كي يتمكن هو وغيره من لعب الدور القيادي الذي طالبته به. هذا العمل
يتلخص في زرع التأخي الديني في قلوب أطفالنا. عندما نقل غبطة البطريرك هذه الحادثة إليّ،
شعرتها كخنجر يطعن في صميم قلبي، ولا زال الجرح يؤلمني إلى هذا اليوم. لأنني كنت أعتقد
ولا زلت أتمنى أن اعتقد، وكما استمعنا هذا الصباح للكلمات المختلفة، أننا في هذه البلاد تحديداً
على الأقل، لا يوجد بيننا تفرقة، أعني بيننا كمسلمين ومسيحيين، بل يوجد الاحترام المتبادل، وأن

تربيتنا أنشأتنا على ذلك، ولكن كما يبدو للأسف فإن هنالك فارق شاسع ما بين أمانينا وطموحاتنا من جهة وكلماتنا الجميلة في هذا الصدد من جهة أخرى. وما تلك الحادثة التي حصلت على ذلك الجبل إلا انعكاساً لانحطاط – برأيي – مستوى ونوعية التعليم الذي يجري في مدارسنا، وللتشوه الذي أصاب هذا التعليم، واحاله متناقضاً للتعليم الذي يجب أن يكون موجوداً، أي التعليم المبني على التسامح بين الأديان.

أردت أن أستهل كلامي باستحضار هذه الحادثة، وأما الآن فأعود إلى الموضوع الذي نحن فيه: وكما ذكرت قبل دقائق، فإنني هنا لست كممثل لدين من الأديان ولست أيضاً ممثلاً لوزارة من الوزارات، أنا أمثل نفسي، وأنا أمثل نفسي هنا كمربي، لأن هذا هو عملي وهذه هي مهنتي. أنا مربي وأعمل في سلك التعليم، وبالتالي أعتقد أن لي الحق كمربي وكشخص يعمل في سلك التعليم أن أعبّر عن رأيي بصراحة، وان لم يكن المربي فينا صريحاً مع الآخرين ومع نفسه فلا يكون يستحق برأيي موقعه كمربي. ومن هنا أبدأ في أول شيء أريد أن أقوله في هذا المجال، وهو أنني بالتالي أنطلق في فكري وحديثي ليس من الزاوية المائلة أمامنا وهي زاوية الحوار بين دينين فقط، هما الدين المسيحي والإسلامي. من منطلق المربي، ومن منطلق الإنسان الذي لا يمثل هذا الدين أو ذلك، فإنني أقول أن المنطلق الحقيقي الذي يجب أن ننطلق منه، أو الذي انطلق أنا منه على الأقل، هو منطلق إيجاد الجسور أو التفاهم ليس فقط بين دينين، ولكن بين كافة الأديان بل والمعتقدات أيضاً، الدينية منها وغير الدينية. ونحن نعرف ان هنالك أديان كثيرة ليس فقط في هذه المنطقة أو البقعة من العالم ولكن في بقاع مختلفة، كما أن هنالك معتقدات كثيرة. ونحن كبني بشر إنما يجب برأيي أن نسعى لتحديد تلك الأسس التي عليها يمكن أن نبني جسوراً بين الانسان وأخيه الانسان بغض النظر عن المعتقد الاساسي الذي ينطلق منه هذا الانسان أو ذلك، إن كان مسيحياً أو مسلماً أو يهودياً أو بوذياً أو هندوسياً أو ما شابه. أقول ذلك لأن منطلقي بالأساس هو إنساني، في هذا الشأن وفي غيره، ولا يلتصق بدءاً بهذا المعتقد أو ذلك. وإن كنت، وكما نوهت سابقاً، أتحدى بالمعتقد الذي يخصني.

إذن فإن ما أريد أن اطرحه أمامكم اليوم هو تحليل لمشكلة عامة تكمن في وجود تصادم ليس فقط بين المغالين أو المتطرفين-كما استمعنا هذا الصباح- في هذا الدين تحديداً أو ذلك، أي في دائرة الدينين بين المسيحي والإسلامي، ولكن بين المغالين أو المتطرفين أياً كانت معتقداتهم، أي التطرف بشكل عام. وهنا دعوني أقدم أفكارى عن طريق وضع التساؤلات: وأبدأ بالأول منها: أيهما تعتقدون يأتي أولاً برأيكم، قواعد اللغة (دعنا نبتعد قليلاً عن الموضوع المائل أمامنا، أي الدين تحديداً) أم التكلم بها؟ بمعنى آخر، هل نضع قواعد اللغة أولاً ثم نأتي على ممارستها؟ أم هل نبدأ بممارسة الكلام فيما بيننا، ومن ثم نأتي الى وضع القواعد؟ من الأهمية بمكان أن نستهلّ

نفاشنا بهذا الأمر الذي يبدو لأول وهلة بعيداً عن مسألة العلاقة بين الأديان، ونحاول أن نفكر بهذا السؤال، وبالإجابات المحتملة له، كمدخل للتفكير بالعلاقة بين الدين والمتدين، وبين الدين والمتطرف. يلتصق سؤالنا الأول كما هو معروف بسؤال ثانٍ طرحه كثير من العلماء والفلاسفة والمفكرون عبر التاريخ، وتوجد هنالك مدارس فكرية متعددة نشأت على أرضية الخلافات في الإجابة عليه، والسؤال هو: أيهما يأتي أولاً (باعتمادكم) الفكرة أم المفكر؟ أي هل يأتي المفكر بالفكرة؟ أم هل تأتي الفكرة بالمفكر؟ والسؤال ليس سطحياً، كما قد يبدو للبعض لأول وهلة، وليس أدل على ذلك من محاولة الجزم فيما إذا كان هنالك فرق بين أفلاطون صاحب النظريات مثلاً، وأفلاطون المجرّد عن فكره، فهل كان هو من صمّم أفكاره، أم كانت أفكاره هي التي صمّمته كأفلاطون الذي نعرفه، أو حتى الذي يعرف نفسه؟ وأنتم تلاحظون أن هنالك توازياً بين هذا السؤال والسؤال الأول، حول القواعد اللغوية، وممارسة هذه القواعد، أي الكلام.

دعني انتقل للواقع الذي نعيش وأعطي مثلاً حيويّاً للذي أقصده، ويعكس موقفنا أو الإجابة بهذا الشكل أو ذلك على هذه التساؤلات، على موقفنا السياسي، أي كيف تتعامل مثلاً فتح مع حماس. والسؤال هنا هو، أيهما يأتي أولاً، حماس أم الحمساوي؟ أو دعني أقول الحماسوي: حماس أم الحماسوي؟ وأيضاً: فتح أم الفتحاوي؟ أو كما نقول الفتحاوي؟ الفكر الفتحاوي أم الإنسان الفتحاوي؟ وأيها أولاً: الفكرة حماس أم الحمساوي الإنسان؟ لماذا أسأل هذا السؤال؟ أسأل هذا السؤال لأنه هنالك حاجة ماسة لتحديد الإجابة على سؤال مقترن بهذا السؤال، ومقترن أيضاً بالسؤال الذي سبق وان طرحتها، وهو السؤال الجوهرى الذي نقصد، أي أيهما سيد أو صاحب الآخر؟ هل الفتحاوي هو سيد فتح؟ أم هل ان فتح هي سيده الفتحاوي؟ هل حماس هي سيده الحمساوي أم الحمساوي هو سيد حماس؟ أيهما يأتي أولاً الفكرة أم المفكر؟ الإنسان أم الفكر أو العقيدة؟ فلا نعني إن بالاول الأول زمنياً، بل نعني به الأول مفهوماً، أو منطقياً، أي يسبق الآخر من حيث يحتاج الثاني للأول، لإثبات وجوده، ولتحديده كما هو. فمن هو صاحب الآخر؟ ومن هو المؤثر على الآخر؟ من هو السيد في المعادلة؟ ومن هو العبد في هذه المعادلة؟ من هو الفاعل؟ من هو المفعول به؟

متعلق في هذا الموضوع إذن سؤال أساسي حول ما نسميه بالهوية، أي هوية الشيء، وأعني بالهوية ما يرمز أو يدل على كنه الشيء أو ذاته كما هو. فنحن نتكلم مثلاً عن هوية الإنسان ونسأل ما هي؟ ونتكلم عن هوية الفكرة ونسأل ما هي؟ ثم نتكلم عن هوية حماس أو فتح، أو الصهيونية؟ أو الفكر الوطني الفلسطيني أو القومي العربي أو الامبريالي أو الاستعماري. نسأل عن الهوية سعيّاً وراء تحديد أو تشخيص ذلك الشيء المائل أمامنا، ما هو، أو ما هي، ثم قد نأتي بالإجابة قائلين أن فتح هي كذا، أو أن حماس هي كذا. ولكن لم التمييز بين فتح والفتحاوي أو

حماس والحمساوي في هذا السياق؟ لماذا أسأل؟ لأن هنالك مدرستان: هنالك من يعتقد أن هوية الشيء هي جامدة أو ثابتة ومن جملة "المعطيات" في العالم، وهنالك من يعتقد أن هوية الشيء هي متحركة، متغيرة، ومن جملة "المصنوعات" في العالم. هنالك من يعتقد أن الهوية، الجوهر، هي صاحبة، هي السيدة، هي الأولى. ثم هنالك من يعتقد أن الفرد، الإنسان، هو صاحب، هو السيد، هو صانع الجوهر، فالهوية تالية وليست سابقة. ولناخذ على سبيل المثال موضوعاً ما، كالإيمان بمعتقد ما، ودعنا نقول أنه المعتقد الحمساوي، ثم نأخذ مقابل ذلك معتقداً آخر هو المعتقد الفتاوي، ثم دعنا نفترض أن هوية المعتقد الحمساوي هي هوية جامدة ثابتة غير متحركة، وهي صاحبة أو السيدة، إذن فماذا نجد أمامنا عندما نقابل هويتان إزاء بعضهما البعض وهما جامدتان بهذا الشكل؟ نجد بشكل ما أو آخر أنه لن توجد هنالك علاقة بين هاتين وتلك إلا علاقة الرصاصة أو البندقية أو التصادم أو الصراع، ولن تتغير الصورة إلا إذا تحرر الفرد أو الإنسان من التفكير بأن معتقده هذا، حمساوياً كان أم فتاويماً، هو السيد، وابتداءً بأن ينظر إليه من باب أنه تابع له، ليس سيداً عليه، وأيضاً من باب أن المعتقد ليس جامداً بطبيعته، بل بإمكانه أن يصممه أو يقلمه حسب مشيئته. عندئذ، وإن كان الإنسان قادراً على تحديد هاتين الهويات، فسوف يكون قادراً على جعلهما تلتقيان، وتتساوقان مع بعضهما البعض، وأن تتعايشا سوياً. لاحظوا إذن أن الذي أقوله هو أنه يمكننا التعامل مع الهوية الحمساوية، بالقول أنها هوية جامدة، وانك مهما فعلت فإنك لن تتمكن من منعها من التصادم بكنهها وبمضمونها مع الهوية الأخرى الجامدة التي هي الفتاوية. ولكن يمكننا أيضاً وفي المقابل أن نتخيل هذا الإنسان حمساوياً أم فتاويماً، يقف ويقول انني أنا سيد هذه الفكرة، انني أنا الذي صممت هذه الهوية، أنا الأول والأساس وليس الفكرة، وإذا ما وجدت أن الفكرة قد تؤدي بي إلى الهاوية فإنني قادر بكل بساطة على تعديلها لجعلها تتوافق والمستجدات أو التطورات التي لم تكن تخطر على بال.

دعني الآن أنتقل إلى بقعة فكرية أخرى، ملاصقة للموقع الذي كنت أتكلم في إطاره، ولكنها أقرب أيضاً إلى ما نحن فيه: هنالك كما قلت في السابق وفي البداية ليس فقط الدين الإسلامي والدين المسيحي بل هنالك رسالات سماوية مختلفة، وديانات ومعتقدات مختلفة. ثم هنالك الرسائل السماوية من جهة و الرسائل الإنسانية من جهة أخرى، أي هنالك ما أوحى به لنا وبالمقابل هنالك أيضاً تلك المعتقدات الفكرية التي توصل إليها الإنسان بعقله. أنا لا أنفي طبعاً أن يكون هذا الطريق الأخير، أي طريق العقل، هو أيضاً طريق إيمان ولكن غير مباشر من الخالق. مع ذلك فالتمييز بين الوحي والعقل قائم، ويمكننا استناداً إليه التطرق إلى الفرق أو الفروقات بين الرسالة السماوية والرسالة الإنسانية. وهنا نجد اختلافاً جوهرياً في سياق ما كنت أقول به سابقاً، أي عند الحديث عن فتح وحماس، أو الفكرة و المفكر عموماً، أو القواعد واللغة. فكلنا يعرف أن فتح

وحماس هي من إنتاجنا، أي من الإنتاج الفكري الإنساني، وعندما كنت أتكلم عن اللغة والقواعد فكلنا يعرف أنها هي أيضا من الإنتاج الإنساني، فالغموض أو التساؤل وارد بخصوص أيهما أولاً. لكن عندما نأتي إلى هذا الموضوع تحديداً أي الفارق الجوهرى بين الرسالة السماوية والرسالة الانسانية او بين طريق الوحي أو العقل، فإننا سوف نجد أنفسنا أمام مشكلة هي أن الرسالة السماوية لا يمكن أن يوجد بصددها تساؤل أو غموض بخصوص مَنْ يأتي أولاً: الانسان ام الرسالة، ذلك لأن الرسالة هي من الخالق ومن الواضح ان الخالق قبل المخلوق، وبالتالي فمن الواضح أن الرسالة السماوية، إن كان من الناحية الزمنية او المنطقية أو كيفما شئت، هي التي تأتي أولاً.

فدعنا إذن ننقل الآن إلى السؤال: هل توجد بين الرسالة السماوية والرسالة الإنسانية أو المعتقدات صفات مشتركة تجمع بين هذه وتلك؟ قد تجب، بالطبع توجد مثل هذه القواسم، لأنه إذا ما نظرنا الى الفلسفات او المعتقدات التي أتى بها الانسان عن طريق العقل او الاجتهاد العقلي فسوف نجد ان هنالك كثيراً من القيم التي تسمى القيم الانسانية تشابه القيم الموجودة في الرسائل السماوية، مثلاً كالمودة أو الرحمة أو الصدق أو الأمانة أو غيرها. فإذا كانت هنالك هذه القواسم المشتركة المختلفة، وإذا كانت الأهداف للرسالة او الرسائل السماوية هي الرقي والنهوض بالإنسان، وكانت هاته هي أيضاً أهداف الرسائل الإنسانية أو العقلية أو البشرية، فيبرز هنا السؤال، كيف اذن يمكن أن تتصادم هذه المعتقدات وتلك؟ وإذا كانت نفس هذه القواسم موجودة أيضاً برسالة سماوية بأخرى، فكيف يمكن أن تتصادم رسالة سماوية برسالة سماوية بغيرها؟ بل وكيف تتصادم رسالة سماوية برسالة بشرية، او رسالة بشرية برسالة غيرها، الرسالة الفتاوية بالرسالة الحمساوية؟ سؤالنا هو " كيف تتصادم؟" والحق هنا هو أنها لا تتصادم بتاتاً!! الرسائل لا تتصادم، وكيف للرسائل أن تصطدم ببعضها؟ إذن مَنْ الذي يتصادم حقاً؟ الذي يتصادم هم البشر، هم الناس، ليست الرسائل نفسها، فالرسائل لا تنزل إلى الساحات بالدبابات والمدافع والرشاشات او بالاذرع، إنما الذي يتصادم هم البشر، هم حملة هذه الرسائل وتابعوها، هم مفسروها، وهم حملتها، هم البشر الذين يتصادمون. فعلى سبيل المثال، وإشارة إلى ما ذكره سماحة قاضي القضاة هذا الصباح بخصوص الحادث المخزي وهو قيام بعض المسلمين أو الذين يدعون هذا الدين باغتيال او قتل اخوانهم المسيحيين في العراق-الحادث الذي استنكره صباح هذا اليوم- فعندما نتحقق فيما إن كان الذي قام بالقتل هو الرسالة السماوية، أي الإسلام، وفيما إذا كان الذي تم قتله هو الرسالة السماوية، المسيحية، فسوف نجد أن الذي حصل هو ان بشراً يدعون هذا الدين هم الذين قاموا بقتل حملة الدين الآخر. فالذي يتصادم في الواقع هو الانسان وليس المعتقد. وإذ نحن بصدد فهم كنه الحدث لتلافي تجسيدهاته مستقبلاً نتساءل: متي يتم مثل هكذا تصادم؟ أي

متى يقوم الحَمَلَة والمفسرون بالتصادم؟ وعلى أي أساس؟ ونجيب بالقول أن الخلل الأول يتعلق بمستوى فهمهم، ومستوى تعليمهم وتربيتهم، وبالتالي بتفسيرهم أو فهمهم لمضمون رسالتهم. ومفهومهم المحدود بل وقد يكون المشوّه لمعنى الرسالة التي يؤمنون بها بالأغلب يتناقض أيضا مع مفهومهم لمضمون رسالة الآخر. ففهمي للإسلام على سبيل المثال أنا الانسان يتناقض، أي أن هذا الفهم يتناقض مع ما افهمه على أنه الرسالة المسيحية، و نتيجة لما أراه من تناقض فقد يدفعني ذلك لأن أقوم بالدعوة لقتل الآخر او للاعتداء عليه. أعود وأذكر، أنني أتكلم عن خلافات ليس فقط بين حَمَلَة هذه الرسالة السماوية او تلك، مثلا المسيحي والمسلم، فالموضوع أخطر وأعم بكثير من ذلك، أي من كونه يتعلق فقط بالمسلم والمسيحي. وهو أكثر خطورة لأنه يتعلق بالاخ وأخيه الانسان بالفلسطيني، بغض النظر عن الدين. كما نرى ونشهد بالنسبة للأحداث المؤسفة التي تدور بين الذين يتبعون الفكر الحمساوي كما قلت والفكر الآخر أي الفتحاوي او الوطني بشكل عام، فيكون هذا إما نتيجة تخلف كما قلت، او نتيجة مستوى فكري او تعليمي متدن، وبالتالي يصبح المفهوم للشيء، كالمفهوم من الرسالة الدينية او السياسية، هو المحرك وليس الشيء نفسه كحقيقة الرسالة أو الفكرة، ويصبح مفهوم هؤلاء الحَمَلَة يدفعهم للتصادم مع الاخرين، وهذا أمر. ثم قد يكون هنالك من جهة أخرى دواع لا تمت للرسالة نفسها بصلة، كالسعي على سبيل المثال لتحقيق مصالح ذاتية، أو اقتصادية أو استعمارية أو غيرها. أي قد تكون ما تكون، ولا علاقة لها بالرسالة أو الفكرة التي تستعمل حينئذ فقط كغطاء أو كمبرر للاعتداء أو الصدام. هنالك من اليهود على سبيل المثال ممن يعتبرون ان دينهم اليهودي يقتضي أو يلزمهم بطردي انا الفلسطيني عن أرضي، وبالتالي فهم يقومون فعلاً بمحاولة طردي عن الأرض فهذا أمر له علاقة بالدين. ولكن هنالك أيضاً يهود او دعني اقول اسرائيليين يهمون بطردي عن ارضي ليس من باب فهمهم لدينهم وانما لتحقيق مآرب لها علاقة بتوسع ارضي، أي استعماري بالمعنى السياسي، لكن الغطاء هو الدين. فعندما يقوم حَمَلَة رسالة دينية معينة أو إنسانية أو عقائدية بالاعتداء على جهة أخرى، فقد يكون ذلك اما لأن هذا الانسان أو الطرف الذي يقوم بالاعتداء لديه فهم ضيق لرسالته أو لدينه، أو قد يكون يتسّر بهذه الرسالة أو هذا الدين من أجل تحقيق غرض بشري أناني كالتوسع والهيمنة والاستغلال على حساب الآخر.

وقد تكون هنالك دواع أخرى، مثلاً كما يقول مفتي بيت لحم. أنه قد يوجد من وراء الأكمة من يغذي هذه النيران لغرض في نفسه، أي بحيث يكون المتصادمون هم فقط الواجهة والدمى لعراك أوسع أو أعمق.

ولكن، وإذا ما عدنا للمعتقدات التي يحملها الانسان ودورها في العدوان فليس كافياً أن أومن بصحة معتقدي لكي أستصغر من شأن الآخر أو لكي أعتدي عليه، بل إلى جانب إيماني بمعتقدي،

يجب أن يكون هنالك اعتقاد مرگب آخر، من الأهمية بمكان إلقاء الضوء عليه، هو إيماني بانفرادية صحة معتقدي، وبضرورة فرض هذا المعتقد على الغير بالقوة. لاحظوا معي إذن ماذا يعني التصادم بين حَمَلَة الافكار، فهو يستدعي، فضلا عن إيمان الواحد منا بمعتقد يختلف عن ذلك الذي يؤمن به غيره، ان يتوفر الشرط الإضافي المرگب وهو أن ينتقل من مرحلة التفكير الى مرحلة فرض هذا الفكر على الاخر بالقوة. هذه اذن هي البقعة الثانية من البقاع الفكرية التي نوهت في البداية الى عزمي التطرق لها في مداخلتني هذه، وأما البقعة الثالثة والأخيرة، فيمكن التطرّق لها كالآتي: فلننظر إلى هذا المشهد أمامنا وما يحدث من تصادم على الساحة، ونسأل السؤال: أيهما أفضل بالنسبة لنا كبشر؟ هل نترك المجال للصدام والمتصادمين؟ هل نفسح المجال لانتشار الكراهية والعنف وهدر الدماء؟ وهل نترك هذا الجدار الذي يفصل بين الانسان واخيه الانسان على حاله؟ ام هل نسعى لتحقيق السلام والعدالة والمساواة بين الناس؟ هذا سؤال أساسي خاصة على خلفية ما يحدث من تصادم او من صدمات، وهو سؤال يجب ان نسأله لأنفسنا بغض النظر عن ديننا الذي ننتمي اليه، وعن معتقدنا الذي نؤمن به. سؤالنا يجب ان يكون: هل نفسح المجال لهذا التصادم بين الناس؟ أم هل نسعى من أجل إقامة السلام البشري؟

طبعاً لو سألتكم هذا السؤال بالشكل المطلق، أن يرفع كل منكم ممن يؤمن بذلك يده، فمن المؤكد أن يرفع جميعكم يده، وسوف تقولون جميعاً بأننا نريد السلام والعدل والمساواة، وبالتأكيد بأننا لا نريد العنف والقتال والكراهية، ولكن كيف؟ كيف نبني هذه الجسور؟ كيف نحقق هذا السلام البشري؟ كيف نتجاوز هذه المشاكل التي أشرت بالنسبة للصدمات؟ قد يتبادر إلى الذهن أن الجواب البسيط والبيهي هو أن نفتش على الاقل عن قواعد الاتفاق بين معتقدنا ومعتقد الآخر، أي القواسم المشتركة بين ما أحمل من أفكار وبين ما يحمله الآخر. نعم، ولكن كيف استطيع أن أحدها؟ أو بالاحرى كيف استطيع انا مع الآخر أن نحدد هذه القواسم المشتركة؟ هل يوجد معيار، أو هل توجد آلية حيادية يمكن الرجوع اليها واعتمادها من كلينا لتحديد هذه القواسم المشتركة بيني وبين الآخر؟ من الواضح أن الشرط الذي لا يمكن بدونه حتى المباشرة في محاولة تحديد الاجابة عن هذا السؤال هو انتهاج اسلوب الحوار كي نتمكن من تحقيق او تحديد هذه الوسائل. يجب بالضرورة أن نتحاور معاً من أجل التوصل إلى تحديد الأسس المشتركة بغض النظر عن هوية رسالتنا الدينية. ويمكننا باستعمال الحوار التوصل إلى معرفة أو تحديد تلك القيم المشتركة بين الرسائل الدينية أو العقلية المشتركة، فننظر مثلاً إلى ميثاق الأمم المتحدة بخصوص حقوق الانسان وهي تلك الحقوق التي اتفق عليها او تبلور حولها إجماع منذ أواخر أعوام الأربعينات. وهناك عمل جارٍ مستمر على تطويرها، وهي حقوق اساسية لا خلاف حولها كالحق بالعيش بكرامة والحق بعيش بحرية، ثم حقوق لها علاقة بالوضع الاقتصادي، وبالوضع

الاجتماعي.. الخ. هذه كلها نقاط لا يمكن ان يختلف عليها اثنان، وهي شعارات يرفعها الجميع، واذا ما قورنت هذه الحقوق المنصوص عليها في الميثاق المذكور بما أتت به الرسائل السماوية التي يحملها أحدنا او الآخر سوف نجد حقيقة أن معظمها مشترك، وليس أدل على ذلك من استماعنا صبيحة هذا اليوم لغبطة البطيريك في كلمته، ثم الى ما قاله سماحة قاضي القضاة، حيث وجد الذي استمع بدقة أن هنالك بالحقيقة لقاء، لقاء وجداني، ولقاء فلسفي، ولقاء فكري بين هذا الانسان وذلك الإنسان. لقاء وجداني بين الذي يمثل هذا الدين والذي يمثل ذلك، وفي واقع الأمر سوف نجد أن هذا اللقاء القيمي هو نفسه المتمثل في نصوص وثيقة حقوق الانسان التي أكدت عليها الأمم المتحدة، وهذا كله أمر جيد، أي أن نجد من خلال التمهيد أن قيمة كثيرة متفق عليها، وتشترك بها المعتقدات والأديان المختلفة. ولكن دعنا الآن نفترض اننا وإن اتفقنا على كافة هذه القضايا، أن هنالك أيضا هذه النقطة او تلك التي يوجد حولها اختلاف. ماذا نفعل حينئذ؟ ماذا نفعل عندما يجتمع هذا رجل الدين وذلك، ويحاولان من خلال الحوار التوصل الى اتفاق. فيران أن هنالك إجماع باستثناء نقطة او بعض النقاط التي لا يزال الخلاف قائما حولها. فماذا يفعلون؟ لاحظوا هنا أننا في الدعوة الاولى حين كان الخلاف قائما بيننا وكنا نسعى لإيجاد آلية للتوصل إلى وفاق، وإلى السلام البشري، قررنا أن الآلية الوحيدة المتوفرة هي الحوار، إذ لا يوجد لدينا اداة لتحديد طريقة لحل هذا الخلاف بيننا إلا وسيلة العقل، فالعقل هو الاداة الانسانية الوحيدة المتوفرة لدينا من أجل حسم الخلاف بين قيمتين من أجل التوصل إلى معرفة أيهما أفضل. لكننا الآن أمام موقع متقدم. إذ دعنا نفترض أن العقل لم يعطنا الجواب، فماذا نفعل عندئذ؟ بدأنا نتجادل، واستعملنا العقل في جدالنا ولكن العقل لم يحسم الأمر. فماذا نفعل؟ اشار الفيلسوف القرطبي ابن رشد إلى هذه المسألة في كتابه "فصل المقال"، وذلك للحسم في مسائل قد يظهر فيها الخلاف بين الشريعة والعقل، فقال: أنه عندما نواجه أمراً كهذا وهو احتمال ضئيل جداً، فهنا يجب ترجيح العقل، وتأويل النص الشرعي ليوافق ما يقوله العقل. هذا ما قاله ابن رشد في حينه، ولكننا نطرح هنا احتمالاً أكثر تعقيداً لم يتناوله ابن رشد، وهو أن نجد أنفسنا إزاء خلاف بين عقل وعقل، أي أننا قد لا نتفق على ما هو العقل أو على ما يمليه العقل، فماذا نفعل عندئذ؟

نأتي هنا على أمر في بالغ الأهمية، وهو بيت القصيد، ومفاده باختصار مبدأ احترام الآخر والتعايش معه، والقبول بتعددية الافكار والمعتقدات. بمعنى اخر، أحاول أولاً أن أتوصل في بنائي للجسور لاتفاق على كافة القواسم والقيم المشتركة، ولكنني أتعامل مع الآخر على أساس أنني وإن لم أجد نفسي متفقاً معه بالعقل على كل شيء، فإنني بالرغم من ذلك على استعداد لاحترام الاختلاف بيني وبينه، والتعايش معه واحترام رأيه، أي لقبول او احترام التعددية. تماماً كما أشار سماحة قاضي القضاة في كلمته هذا الصباح، وكما نجد في الانشودة التي كتبها محمود درويش،

وهي إنشودة إعلان الاستقلال، حيث أكد أن تكون هذه الدولة التي نسعى لإقامتها دولة تحترم وتحتوي كافة الاطياف والأديان والألوان. هذا هو معنى الديمقراطية، وهذا هو الذي نفتخر به كشعب فلسطيني. واستطيع الجزم إننا إن كنا ننفرد بشيء عن بقية الشعوب العربية الشقيقة، فما استطعنا أن ننفرد به هو عشق الديمقراطية وعشق الحرية، لأننا من بين هذه الشعوب عشنا في الاغلال مكبوتين، عشنا تحت الاحتلال مقيدتين بشباكه، فتحسنا أكثر من غيرنا معنى الحرية، وعشقها، ومعنى الديمقراطية وعشقناها، وتعلمنا بالتالي تقبل الاطياف واحترام كل منا للآخر. اذن محمود درويش، قاضي القضاة، انت، نحن، فلسطين، كيفما كان الآن، فإننا عندما نخلف فسبيلنا لحل هذه الخلافات هو ان نقبل بتعددية الفكر ونحترم بعضنا البعض ولا نعلم اطفالنا المسلمين بأن يزدروا الصليب الذي يزين صدر غبطة البطريك، كما تجلّى ذلك في الموقف المخزي الذي وقفه هؤلاء الطلبة الصغار في العيزرية.

بقي الآن أمر أخير علينا تناوله، فالإنسان لا يتصادم مع غيره فقط، لكنه يتصادم أيضا مع نفسه. انا مثلا أتصادم مع نفسي باستمرار، تقول كيف؟ مثلا عندما يكون لدي فكر او معتقد معين، وأجد نفسي أمام مشكلة او قضية تقتضي لمعالجتها أن أخالف هذا الفكر أو المعتقد، فماذا أفعل؟ ماذا أفعل عندما أجد نفسي في هكذا دوامة فكرية وجدانية وعاطفية؟ ماذا أفعل مثلا عندما أجد نفسي كمسلم من جهة يؤمن بما يؤمن به، ثم يجد نفسه مدفوعاً لتنفيذ فعل يبدو أنه يتناقض مع ما يؤمن وجدانيا به من جهة أخرى كقيمة إنسانية أساسية؟ مثلا كأن يُدفع بي كمسلم لأقتل أخي المسيحي، أو أن انتقص من حقوق أخي الفلسطيني المسيحي أو الماركسي، ماذا أفعل عندئذ؟ كيف أتصرف في صراعي مع النفس؟ هنا أنا أقول وهذه كلمتي الأخيرة، فإنني أرجح شعوري الوجداني بما هو حق إنسانيا. على ما يمليه معتقدي، بمعنى أنني لا أسمح لنفسي بأن أقوم بعمل أشعره يتناقض مع ما أوّمن وجدانيا وبالسليقة الخلقية، بأنه حق، أي ما أشعر به بأنه قيمة أساسية إنسانية. هذا مخرجي من دواماتي، ولكل بالطبع مخرجه وشكرا.

- انتهى -